قـراءة نـماذج
في رثاء مـدن وممالـك أنـدلسيـة

د . فورار امحمد بن لخضر

الملخص :

أثر سقوط مدينة بريشتر ومملكة طليطلة في قبضة النصارى في نفوس الأندلسيين ، فعبر الشعراء عن هذه الكوارث في شعرهم السياسي الذي يعد من صميم رثاء المدن والممالك.

Resumes:
When the kingdom of "TOLITILA" was conquered by the Christians .the andalousians were deeply influencing and poets wrote a political poetry about this event which considered as a crying on cities and kings.

يعد رثاء المدن والممالك أكثر فنون الشعر قولا و صدقا وأصالة ، حيث توجد الدوافع النفسية وراء إنشاده ، وكذلك وفرة التجارب و الأحداث المتلاحقة على أرض الأندلس ، و المؤثرات الداخلية و الخارجية التي أثرت في عواطف الشعراء ، وهذا الفن خاص بالأندلس ، رغم أن له جذورا في المشرق (1) ، ولكنها لم تأت في روعة وجودة الشعر الأندلسي .

و الرثاء السياسي ينحصر - في نظرنا - في رثاء المدن ، وآخر في رثاء الممالك الزائلة ، وكلا اللونين يتسم بالصدق الفني والعاطفة القوية و العبارات الحزينة والألفاظ الباكية و الصور الشجية ، ومن ثم فقد كان هذا الفن على درجة كبيرة من الشهرة والذيوع ، يقول غرسية غومس : ((وقد أدركت طائفة من المراثي السياسية شهرة واسعة في الأدب الأندلسي وقد قيلت هذه المراثي في مناسبات زوال الدول مثل رائية ابن عبدون في زوال ملك بني الأفطس أصحاب بطليوس ، أو بمناسبة ضياع بلد كبير من بلاد المسلمين)) (2) .

أما رثاء المدن فيمكن تقسيمه إلى لون يرثي مدينة خربها المسلمون بأيديهم ، فتهدمت قصورها و امحت رسومها بسبب الفتن التي توالت عليها ، وآخر يرثي مملكة سقطت في يد النصارى ، وتم استردادها ، وأخرى سقطت و إلى الأبد ، والمقصود هنا مملكة طليطلة .

يمثل اللون الأول مدينة قرطبة ، المزينة بالقصور والمتنزهات والحدائق والمساجد ، وقد تغنى الشعراء بجمالها ، و فتنوا بمتنزهاتها، وتتحول أيام الفتنة العظمى ، إلى خراب و أنقاض ونهب وتدمير و حرق ، وتصير زهراء الجميلة الناصر وزاهرة المنصورة إلى اطلال ، ويموت الناس جوعا ، وتشهد العاصمة قرطبة ألوانا من الذل والمهانة .

ويمثل اللون الثاني مدينة بربشتر التي استولى عليها النصارى ثم استردت منهم، تلك المدينة التي كانت من أمهات مدن الثغر وحصانة ومناعة ، ولكن النورمانيين حاصروها سنة 456 هـ لمدة ، ومنعوا عنها كل متطلبات العيش ، و لم يحاول يوسف المظفر إنقاذها ولا المقتدر أخوه ، و لذا طلب المسلمون من العدو الأمان لأنفسهم ، على أن يخرجوا من المدينة دون مال، فوافق النورمانيون و لكنهم ما لبثوا أن خانوا المواثيق ، و نكثوا العهود ، فقتلوا عامة رجالها ، وسبوا فيها من ذرار المسلمين و نسائهم ما لا يحصى (3) .

بيد أن هذا العمل المهين لم يهز ملوك الطوائف ، و لم يحركهم نحو إنجاد المدينة ، ولكنهم تخاذلوا . أما الشعراء فقد ألبهم سقوط المدينة، و كان أشدهم تأثرا بهذه النكبة الأديب الشاعر أبو حفص عمر بن الحسين الهوزني الذي أرسل و هو في مرسية إلى المعتضد ابن عباد بإشبيلية رسالة يحضه فيها على الجهاد ، و ينبهه للأمر الداهم ، تخلل هذه الرسالة أبيات من الشعر ، تصور المعتضد شجاعا في ميدان النزال ، ثم يضفي عليه من الفضائل أرفعها ليستميله لنجدة المدينة ، فيقول (4) :

أعَبادُ كلاَّ قد علوتَ فضائلاً تقاصَر عنها كلُّ أروَع ماجِد

ثم أخذ يمدح المعتضد و يستنهضه و يحثه إلى أن استضرحه بقوله (5) :

فقد جدَّ أمرٌ هَدَّ شَرْع مُحمد و ما مُخبِر عن حالةٍ مثل شاهد

لكلٍّ يَبين الرأيُ عند وفاته هل من دواءٍ بعد نَهْش الأساود

أضاعوا وُجوه الحزم يومًا فعزَّهم على أمرهم من ليس عنه بهاجد

غير أن الرسالة لم تثمر ، بل كان جزاء الهوزني القتل على يد المعتضد ، فقام الكاتب أبو عمر بن عبد النمري ينبه ملوك الطوائف عن هذا الخطر من خلال رسالة أخرى ، و لم تمض أشهر قلائل حتى هب الأندلسيون بقيادة المقتدر بن هود و ساروا إلى الثغر يدفعهم الحماس الديني حتى وصل الجيش الإسلامي بربشتر سنة 457 هـ ، وحاصروا النورمانيين و استردوا المدينة (6) .

و كان لسقوط بربشتر قبل استردادها أثر عميق في نفوس الشعراء ، ومنهم ابن العسال ، الفقيه الزاهد ، الذي صور ما لاقاه سكان المدينة من عنت النورمانين وضلالهم مما تشيب له الولدان (7) :

لقد رمانا المشركون بأسهُم لم تُخْط لكن شأنُها الإصماء

هتكوا بخيلهم قصورَ حَريمها لم يبق لا جبلٌ و لا بطحاء

جاسوا خلال ديارهم فلهُم بهـا في كل يوم غارةٌ شَعواء
باتت قلوب المسلمين برُعبهـم فحماتُنا في حربهم جُبناء

إن الشاعر في بيته الأخير قد حدد موطن الداء وهو يكمن في جبن المسلمين عن نصرة إخوانهم ، ثم يصور أثر الهزيمة القاسية ، والفرار المريب ، و الذل والعار ، ليلهب حماس المسلمين فيهبوا لاسترجاع ما ضيعوه ، و استرداد ما فقدوه ، و لا ينسى الشاعر في أبياته أن يصور الغدر والخيانة التي كان عليها المسيحيون ، ثم يصور مافعلوه في الأطفال و الشيوخ و النساء . إنهم بذلك قد أخلوا بأبسط قواعد الإنسانية ، يقول (8) :

كم موضع غنِموه لم يُرحَم به طفلٌ ولا شيخ و لا عذراءُ
ولكَم رَضيع فرّقوا من أمِّـــه فله إليها ضَجّة و بُغاء
و لرُبَّ مولودٍ أبوه مُجـــــدّل فوق التّراب وفُرْشُه البَيداء
ومَصونة في خِدْرها مَحجوبـــة قد أبرَزوها ما لها استِخفاء
و عزيز قومٍ صار في أيديهـــتتمُ فعليه بعد العِزّة استِخْذاء

و في ختام أبياته يلقي اللوم على المسلمين ، لأنهم بتخاذلهم وتواطئهم قد تركوا الفرصة للنصارى حتى يفعلوا ما فعلوا (9) :

لولا ذُنوب المسلمين و أنهم ركبوا الكبائرَ ما لهنّ خَفاء
ما كان يُنصَر للنصارى فارسٌ أبدا عليهم فالذُّنوب الدّاء
فشِرارهم لا يَختفون بشَرِّهم وصلاحُ مُنتحلي الصّلاح رِيَاء

و كان لهذه الأبيات وقعها المؤثر في نفوس المسلمين فهبوا يدافعون عن المدينة حتى استردوها من أيدي النورمان بعد مضي تسعة أشهر من احتلالها ، و استطاع المسلمون أن يقتلوا من النصارى الكثير و يأسروا الكثير ، و يسبوا نساءهم و أبناءهم ، وذلك بفضل تعاونهم وماسهم الديني(10).

وأما اللون الثالث فإنه يرثي المدن والممالك التي انتزعها النصارى من يد المسلمين وإلى الأبد ، و كان للشعر السياسي دور بارز في رثائها ، وهذه طليطلة ، قد أعد ألفونسو السادس جيشه لمهاجمتها انطلاقا من سياسته التوسعية وذلك حينما قال لأهل طليطلة :((فإنما نطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديما في أول أمركم ، فقد سكنتموها ما قضى لكم ، و قد نصرنا الآن عليكم برداءتكم فارحلوا إلى عدوتكم واتركوا لنا بلادنا ، فلا خير لكم في سكناكم معنا بعد اليوم ، و لن نرجع عنكم أو يحكم الله بيننا وبينكم)) (11) . و فعلا سقطت طليطلة ، بعد استسلام مهين للقادر يحي بن ذي النون ، و ذلك بعد أن فقد أي عون خارجي من أمراء الطوائف ماعدا المتوكل بن الأفطس الذي انتدب القاضي أبا الوليد الباجي بأن يطوف ببلاد الأندلس ، صائحا ومحذرا ومستجيرا ، و يحثهم على الوحدة و نبذ

الخلافات ، ولكنه لم يجد آذانا صاغية، فلم يستجيبوا لنصحه بل كانوا يستبردون نزعته (12).

و هكذا سقطت إحدى حواضر الأندلس الكبرى ، و خرجت من قبضة الإسلام، بعد أن عاشت في ظلاله ثلاثمئة و سبعين عاما (13) .

و كان لسقوط مملكة طليطلة أثر كبير في نفوس ملوك الطوائف و في نفوس الشعراء ، فأما ملوك الطوائف أخذوا يفكرون في لم الشمل و توحيد الصفوف أمام خطر النصارى ، و أما الشعراء فأخذوا في تصوير هذه النكبة ، و كان ابن العسال خير شاعر أحس بهول النكبة لأنه قاسى مرارتها شخصيا حين أخرج من المدينة مع من أخرج ، فأنذر المسلمين في أبياته و حثهم على ترك المدينة لأنه في نظره خير من السبي ، و خدمة النصارى ، فقال (14) :

يا أهلَ أندلسٍ حُثُّوا مطيكُم فما المُقام بها إلا من الغَلَط
الثوب يُنسَل من أطرافه وأرى ثوبَ الجزيرة مَنسولا من الوسط
و نحن بين عدو لا يفارقنا كيف الحياةُ مع الحيَّات في سَفَط

وكان للأحداث التي حلت بطليطلة بعد دخولها في حوزة النصارى أثر كبير في نفوس الشعراء و خاصة بعد أن حولوا مسجدها إلى كنيسة ، و ضيقوا على المسلمين في أداء شعائرهم حتى يجبروهم على التنصر ، و هنا بكى طليطلة المنكوبة شاعر من شعراء الأندلس مصورا ما حل بالمسلمين من ذل و هوان في قصيدة طويلة ، استهلها بهذ السؤال : هل هناك من يبتسم و قد ضاعت طليطلة ؟ و هذا البدء يدل على عمق التجربة وصدقها ، و شدة المعاناة ، التي هزت وجدان الشاعر ، فكيف تعيش مدن الأندلس في سرور بعد هذه النكبة ؟ يقول (15) :

لثُكلِكِ كيف تبتسمُ الثُّغور سُرورا بعدما سُبَيت ثغور

فهذه النكبة قد هدت كيان المسلمين و قصمت ظهورهم رعبا و خوفا ، و ذلك بعد سقوط المدينة ، و امتلاك ألفونسو السادس لزمام الأمور ، و توالي المحن ، و انعدام السرور ، قال (16) :

أما و أبي مصاب هُدَّ منـــــه ثَبيرُ الدين فانَّصل الثُّبُور
لقد قُصِمتْ ظُهور حين قالوا أميرُ الكافرين له ظُهور
تَرى في الدهر مَسرورا بعيْش مضى عنا لِطَيِّتِه السُرور

ثم يتساءل الشاعر في غمرة الأحداث و المأساة : أليس في الأندلس أبي النفس، شهم ، ينقذ طليطلة ، و يحررها من الكفر ؟ (17):

أليس بها أبَيُّ النَّفس شَهْم يُديرُ الدَّوائر إذ تُدور

و كانت صيحته هباء باستثناء المتوكل بن الأفطس الذي أشار على القاضي أبي الوليد الباجي أن يطوف في الأندلس ـ كما تقدم ـ منذرا و محذرا ، و

لكن ملوك الطوائف في ذلك الوقت قد خضعوا لوعيد ملك قشتالة ، و رضوا بالذل و الهوان ، وتسامحوا في الحرمات فقال (18) :

لقد خضعتْ رقابٌ كنَّ غُلْبًا و زال عُتُوُّها و مضى النُّفُور
و هان على عزيـــز القوم ذُلٌّ و سامحَ في الحريم فتى غَيُور

ثم يعرض الشاعر ما جرى في طليطلة ، و كيف كانت معقلا صعبا ؟ يفوق بضخامته ومنعته إيوان كسرى و الخورنق و السدير ، لقد أخرج أهلها و شردوا عن ديارهم و حولت مساجد المدينة إلى كنائس يسمع فيها دق النواقيس بدلا من صوت الآذان ، فأي قلب يقر على هذا و لا يجزع ؟ ! (19) :

طليطلةٌ أباحَ الكُفْرُ منها حِماها ، إنَّ ذا نبأٌ كبير
فليس مثالها إيوانُ كِسرى و لا منها الخَوَرْنَقُ و السَّدِير
مُحَصَّنَةٌ مُحَسَّنَةٌ بعيدٌ تناوُلُها و مَطْلبُها عَسير
ألم تكُ مَعقِلا للدِّين صَعْبا فذَلَّله كما شاءَ القَدير
و أخْرجَ أهلُها منها جَميعا فصاروا حيث شاءَ بهم مَصير
و كانتْ دارَ إيمانٍ و علم مَعالمُها التي طَمِسَتْ تُنِير
فعادتْ دارَ كُفْرٍ مُصْطَفاةً قد اضطَرَبتْ بأهلِيها الأمُور
مساجدُها كنائسُ ، أيُّ قلبٍ على هذا يَقرُّ ولا يَطير ؟

يقول صاحب النفح عن اليوم الذي تحول فيه جامع طليطلة إلى كنيسة: ((و مما جرى في ذلك اليوم أن الشيخ الأستاذ المغامى ، -رحمه الله تعالى- صار إلى الجامع ، وصلى فيه ، و أمر مريدا له بالقراءة ، و وافاه الفرنج ، لعنهم الله تعالى ، و تكاثروا لتغيير القبلة ، فما جسر أحد منهم على إزعاج الشيخ و لا معارضته ، و عصمه الله تعالى منهم ، إلى أن أكمل القراءة و سجد سجدة ، ورفع رأسه ، و بكى على الجامع بكاء شديدا ، وخرج و لم يعرض أحد له بمكروه)) (20) .

ثم يتأسف الشاعر لتلك النهاية المحزنة ، إنه حزن لا يداوى ، يكرر ما تكررت الدهور ، لقد ذوت طليطلة بمحاسنها ، و شردت فيها حرائرها ، و من ثم لا يجد الشاعر غير أن يشارك إخوانه أحزانهم ، قال (21) :

فيا أسفاه يا أسفاه حُزنا يُكرِّر ما تكررت الدُّهور
ويُنشَر كل حسن ليس يُطوى إلى يومٍ يكون به النُّشور
أدِيلَتْ قاصراتُ الطَّرْف كانت مَصُوناتٍ مَساكِنُها القُصور
و أدركها فُتور في انتظار لسِرب في لواحِظه فُتور
وكان بنا و بالقينات أولى لو انضمت على الكُل القُبور
لقد سَخِنَت بحالتهن عين و كيف يُصبح مَغلوب قرير
لئن غِبنا عن الإخْوان إنَّا بأحْزان و أشْجان حُضور

و الشاعر يرجع النكبة إلى فعل الدهر ، أو يرد الأحداث التي حلت بالمدينة إلى تقلب الدهر ، و يستبعد أن تكون ((عقابا من الله على معاصي ارتكبها أهل طليطلة ، و إنكارا منه لواقع في حياتهم لا ترتضيه الشريعة ، و حجته في الرد أن غيرهم أسوأ منهم ، و أشد فسقا و فجورا ، فإذا ارتضينا هذا سببا فعلينا أن نتوقع نفس المصير ، و في قولته هذه يستهدف أمرين فيما أرى : الدفاع عن قوم سقطوا في محنة الاحتلال ، فهم في حاجة إلى شيء آخر غير التقريع و الذم ، و تذكير الغافلين في بقية مدن الأندلس بما يمكن أن ينتهي إليه حالهم إذا واصلوا سيرتهم العابثة و واصلوا مظالمهم و عصيانهم سرا وعلانية))(22) ، قال (23):

نُذور كان للأيام فيهم ... بمُلكهم فقد وفت النُّذور
فإن قلنا العقوبةُ أدركتهُم ... و جاءهم من الله النَّكير
فإنَّا مثلُهم و أشدُّ منهم ... نَجور وكيف يَسلم من يجور؟
أنأمَن أن يَحُلّ بنا انتقام ... و فينا الفسق أجمع والفُجور
و أكلُ للحرام ولا اضطِرار ... إليه فيَسْهل الأمر العَسير
و لكنْ جُرأة في عُقر دار ... كذلك يفعل الكلب العَقور
يزول السِّترُ عن قوم إذا ما ... على العِصيان أرخَيَّت السُّتور

ثم يحث قومه على الأخذ بالثأر ، و نصر الديانة ، فقد حامت النسور فوق جثث القتلى من المسلمين ، و ذلك حتى يبعث في نفوسهم روح الشجاعة و الحمية و سل السيوف ، و يدعوهم إلى التعاون و عدم التهاون لأن الموت في عزة خير من الحياة في ذلة، ثم يضيق بالصابرين و يلوم القاعدين (24) :

خُذوا ثأرَ الدَيَّانة وانصُروها ... فقد حامت على القتلى النُّسور
ولا تهنوا وسُلُّوا كل عَضْب ... تهابُ مضاربا منه النُّحور
و مُوتوا كلكم فالموتُ أوْلى ... بكم من أن تُجاروا أو تَجوروا
أصَبْرًا بعد سَبْيٍ و امتحانٍ ... يُلام عليهما القلبُ الصَّبور

ثم يصور قعود الناس و جبنهم عن القتال ، فهم كالأبقار التي تخور ، و قد أضعفت عزائمهم أخبار الهزائم ، و ما يجري لمواطنيهم في طليطلة ، و الشاعر كان يتمنى أن يتشجعوا و يكون لهم زئير الأسود ، لقد ساءت أحوال المسلمين و أضحت أخبارهم مصدر كدر و ألم ، و تأتي الكتب مسطرة بالشر ، و النحس خير مبشر لهم ، قال (25):

نَخور إذا دُهِينا بالرَّزايا ... وليس بمُعجَب بقرُ يَخور
ونَجبُن ليس نزْار، لو شَجعْنا ... و لم نَجبن لكان لنا زئير
لقد ساءت لنا الأخبار حتى ... أمات المُخبرين بها الخبير
أتتنا الكتبُ فيها كلُّ شرٍّ ... وبشَّرنا بأنْحسِنا البَشير

لقد أضحت أخبار الناس في طليطلة يشيب لكربها الطفل الصغير ، و يصم السميع، و يعمى البصير ، قال (26) :

و قيل تجمعوا لفراق شمل   طليطلة تملكها الكفور
فقل في خطة فيها صغار   يشيبُ لكَرْبها الطفلُ الصَّغير
لقد صُمَّ السَّميع فلم يُعَوَّل   على نبإٍ كما عميَ البَصير

ثم يتحدث الشاعر في ألم شديد عن بعض مسلمي طليطلة الذين أغرتهم وعود ألفونسو ببقائهم على أرض الكفر مع الرضا بالهوان لتنمية ثرواتهم ، بل إن منهم من ارتد عن دينه و اعتنق النصرانية ، و بلغ الحزن غايته حين آثر الجميع البقاء ، و حجتهم ، إلى أين نذهب ؟ ، و كيف نترك بيوتنا و أموالنا و ليس لنا وراء البحر دور و لا أموال؟ ، ليست لنا هناك ضياع ننعم بوارف أشجارها و طيب ثمارها ، و لا طبيعة فياضة بجمالها من ظل و ماء و اعتدال هواء ، قال (27) :

تُجاذِبنا الأعادي باصطناع   فينجذِب المُخَوَّل والفقير
فباقٍ في الدِّيانة تحت خِزي   تُثبِّطُه الشُّويْهَة والبَعير
و آخَرُ مارقٌ هانتْ عليه   مصائبُ دينه فله السَّعير
كفى حَزَنًا بأن الناسَ قالوا   إلى أينَ التحوُّل و المَسير
أنَتْرُكُ دُورَنا و نَفِرُّ عنها   و ليس لنا وراءَ البحر دُور
و لا ثَمَّ الضِّيَاعُ تروقُ حسنًا   نُباكِرُها فيُعْجِبُنا البُكُور
و ظِلٌّ وارفٌ و خريرُ ماء   فلا قرٌّ هناك و لا حَرور
و يأكلُ من فواكهها طَريٌّ   و يُشربُ من جَداولها نَمير

و يصور الشاعر قبول أهل طليطلة دفع الجزية لألفونسو في كل شهر ، و تسليم عشر المحصول في كل صيف ، و ذلك مقابل حماية النصارى لهم ، لقد تبدلت الأوضاع وأصبح النصارى الموالي و العشير للمسلمين ، قال (28) :

يؤدى مَغْرَمٌ في كلِّ شَهْر   و يؤْخَذُ كلَّ صَائفة عُشُورُ
فهم أحْمى لِحَوْزَتِنا وأوْلى   بنا وهمُ الموالي و العَشير

ثم يقرر بأن اليقين قد ذهب ، و ليس هناك دين و لا دنيا ، فالمسلمون قد رضوا بالرق و الذل و الهوان ، ثم يطلب من إخوانه أن يبكوا ، و لكن ما جدوى البكاء ؟ ويتألم الشاعر لحال إخوانه الذين هاموا على وجوههم في فلاة ، حيارى ، ثم يدعو الشاعر إلى نبذ السلم ، و الاستعداد للقتال ، عسى أن يجبر العظم الكسير ، قال (29) :

لقد ذهبَ اليقينُ فلا يقينٌ   و غَرَّ القومَ باللّه الغَرور
فلا دينٌ و لا دُنيا و لكن   غُرورٌ بالمعيشة ما غرور
رَضوا بالرِّقِّ يا للّه ماذا   رآهُ و ما أشارَ به مُشير
مضى الإسلامُ فابْكِ دَمًا عليه   فما ينفِي الجَوى الدمعُ الغَزير

وَنُحْ و انْدُب رفاقا في فَلاة   حَيارى لا تَحطُّ ولا تَسيـر
ولا تَجنَح إلى سِلْم و حارب   عسى أن يُجْبر العظمُ الكَسير

ثم يقارن الشاعر بين فريق المسلمين الذين عموا عن مراشدهم ، و فريق النصارى المتميز بنفاذ البصيرة ، و يتعجب من المسلمين ، إذ كيف يلقون فردا من النصارى ويفرون عنه جميعا ، فهم أشبه بالحمير التي يخيفها القناص ، و كان الأولى أن يثبتوا و أن يصبروا ، و لكن ماذا ينفع العدد الكثير إذا ذهب اليقين ؟ ، قال (30) :

أنَعْمى عن مَرَاشِدِنا جميعا   و ما إنْ منهُم إلا بَصيرُ
و نَلقى واحدا و يَفِرُّ جَمْع   كما عن قانِص فرتْ حَمير
و لو أنَّا ثَبَتْنَا كان خَيْرا   و لكن ما لنا كَرمٌ و خِير
إذا لم يكن صَبْرٌ جَميلٌ   فليس بنافع عددٌ كثير

وأخيرا يتمنى الشاعر أن يظهر قائد ذا رأي ومشورة ، يستعان به وقت الشدائد ويكر إذا أقبلت السيوف ، ويتقدم عند اللقاء ، ويستعظم الشاعر أن يكون الأمر قد بلغ بسكان الأندلس أن يكون إما قتيل أو جريح ، وقد تنغصت الحياة ولا من مجير .

و في الخاتمة يتضرع الشاعر إلى الله لنصرة المسلمين فهو نعم النصير ، قال (31) :

ألا رجلٌ له رأيٌ أصيل   به مما نُحاذرُ نَستجير
يكُرُّ إذا السيوفُ تناولته   و أين بنا إذا ولّتْ كُرور ؟
ويطعَن بالقنا الخطّار حتى   يقولَ الرمحُ ما هذا الخطير
عظيم أن يكون الناسُ طُرًّا   بأندلس قتيلٌ أو أسير
أذكرُ بالقراع الليثَ حِرصا   على أن يُقرع البيَضَ الذُّكور

يبادرُ خَرقَها قبل اتساعٍ   لخطْب منه تنخسفُ البُدور
يُوسّع للذي يلقاه صدْرا   فقد ضاقت بما تلقى صدور
تنغّصت الحياة فلا حياةٌ   وودّع جيرةً إذ لا مُجير
فليلٌ فيه هَمٌّ مُستكنٌّ   و يومٌ فيه شرٌّ مُستطير
ونرجو أن يُتيح الله نصرا   عليهم ، إنه نِعمِ النَّصير

والقصيدة بعد هذا التحليل تتسم بالجودة والأصالة وعمق التجربة وصدقها ، ويصف الطاهر مكي الشاعر ، بقوله : ((أصيل في أفكاره واتجاهه ، لأن قصيدته أول ما قيل في بابها ، وليس عالة فيها على أحد سبقه)) (1) . وصورت القصيدة سقوط طليطلة ومحنة أهلها الذين تخاذلوا عن استردادها .

وهكذا خربت مدن الأندلس وسقطت الواحدة تلو الأخرى في أيد النصارى فراح الشعراء يبكونها ، ويصورون مشاعر مواطنيهم المكلومة ، ويخلدون مراحل

السقوط ، ويعبرون عن ذلك بالدم أحيانا وبالدمع والاستنجاد أحيانا أخرى ، إلا أن معظم الشعراء مالوا إلى الاتجاه الأول ، فوقفوا موقفا سلبيا تمثلت خيوطه باليأس والبكاء وذرف الدموع على الأطلال دون أن يستنهضوا الهمم لدحر النصارى والقضاء على آمالهم لأنهم يمثلون مواقف ملوكهم - كما تقدم - بيد أن هناك قلة من الشعراء وقفوا موقفا إيجابيا فحثوا الشعب الأندلسي على مقاومة العدوان والاستبسال في الذود عن الوطن .

لقد برز في الأندلس قسمان من الرثاء السياسي ، في القرن الخامس الهجري ؛ فالأول انقسم إلى ثلاثة ألوان : منه ما يتعلق برثاء المدن التي تخربت أيام الفتنة - ولم يحظ بالقراءة لتقيدنا بحجم المقال - وآخر انحصر على مدينة بربشتر المستردة ، وثالث كان متوقفا على مملكة طليطلة الضائعة الذي ركزنا فيه بالقراءة على مرثية الشاعر الأندلسي المجهول ، واما القسم الثاني الذي يختص بزوال مملكة بني عباد ، ومملكة بني الأفطس ... فإننا رجأناه لحين الحين .

ويعد رثاء المدن والممالك في الأندلس من أبرز فنون الشعر السياسي ، قولا وتجربة وصدقا وعاطفة وأصالة ، بل إن شعراء الأندلس بزوا شعراء المشرق في هذا الفن من حيث الإبداع والابتكار ، فكتب له الخلود ، ولا غرو فقد كان من أوسع الفنون السياسية في الأندلس كما وكيفا .

هوامش ولإحالات :

1 - الطاهر أحمد مكي . دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة . دار المعارف . مصر ط1 . 1980 . ص 201 .

2 - إميليو غرسية غومس . الشعر الأندلسي . ترجمة حسين مؤنس . القاهرة 1952 . ص106 - 107 .

3 - أبوعبيد البكري . جغرافية الأندلس وأوربا ، من كتاب المسالك والممالك . تحقيق عبد الرحمن الحجي .دار الإرشاد للطباعة والنشر . بيروت . ط 1. 1968 .ص 94 ، ابن عذارى . البيان المغرب . تحقيق ح . س . كولان ، وليفي بروفنسال . دار الثقافة. بيروت . ج 3 ص 225 .

4 - ابن بسّام . الذخيرة . تحقيق إحسان عباس الدار العربية للكتاب . ليبيا - تونس . ط1979.1. ق 2 ج 1 ص 87 .

5 - ابن بسام . المصدر نفسه . 1/2؛ 88 .

6 - ابن عذارى . البيان المغرب . 3؛ 227 .

7 - الحميري . صفة جزيرة الأندلس (منتخبة من الروض المعطار) .تحقيق ليفي بروفنسال . لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة . 1937 . ص 40 - 41 .

8 - الحميري . المصدر نفسه . 40 - 41 .

9 - الحميري . المصدر نفسه .41 .
10 - ابن عذارى . البيان المغرب . 3 : 226 .
11 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 3 : 282 .
12 - ابن الأبار . الحلة السيراء . تحقيق حسين مؤنس . الشركة العربية للطباعة و النشر . ط 1963.1 . ج2 ص 98 .
13 - محمد عبدالله عنان . دول الطوائف . مطبعة الخانجي للتأليف والترجمة والنشر . القاهرة . ط1 . 1960 . ص 111- 115.
14 - المقري . نفح الطيب . تحقيق إحسان عباس . دار صادر . بيروت . 1968 . ج 4 ص 352 .
15 - المقري . نفح الطيب . 4 : 483 .
16 - المقري . المصدر السابق . 4: 483 .
17 - المقري . المصدر نفسه . 4: 483 .
18 - المقري . المصدر نفسه . 4 : 483 .
19 - المقري . نفح الطيب . المصدر نفسه . 4 : 483
20 - المقري المصدر نفسه . 4 : 447 .
21 - المقري . المصدر نفسه . 4 : 484 .
22 - الطاهر أحمد مكي . دراسات أندلسية . 256 ، 257 .
23 - المقري . نفح الطيب . 4 : 484 .
24 - المقري . المصدر نفسه . 4 : 484 .
25 - المقري . المصدر نفسه . 4 : 485 .
26 - المقري . المصدر نفسه . 4 : 485 .
27 - المقري . المصدر نفسه . 4 : 485 .
28 - المقري . المصدر نفسه . 4 : 485 .
29 - المقري . المصدر نفسه . 4 : 485 .
30 - المقري . المصدر السابق . 4 : 486 .
31 - المقري . المصدر نفسه . 4 : 486 .
32 - الطاهر أحمد مكي . دراسات أندلسية . 261 .